

هوية أم وطنية أي صورة للمرأة عند الكاريكاتيرين الجزائريين؟

IDENTIDAD O PATRIOTISMO ¿CUÁL ES LA IMAGEN DE LAS MUJERES EN LA CARICATURA ARGELINA?

حمزة بشيري

مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية و الثقافية، وهران الجزائر

HAMZA BACHIRI

CRASC-Orán

Resumen

Este estudio intenta analizar la visión que se desprende sobre la mujer en las caricaturas argelinas, no sólo como tema de debate académico y mediático, sino también en la construcción de identidades. La propia ideología que subyace en esta visión, a veces inocente, extiende su sombra sobre muchos temas importantes en el país, en términos de derechos básicos del ciudadano y otros problemas sociales y económicos. La caricatura se ha constituido históricamente como una herramienta al servicio de una explotación interesada, bien de denuncia o bien de complicidad. En este artículo tratamos de abordar la idea de pertenencia y nacionalismo estudiando algunas caricaturas de dibujantes argelinos de diferentes períodos.

Palabras clave: Caricaturas, identidad, Argelia, élites, mujer.

Abstract

This study tries to analyze the vision that emerges about women in Algerian cartoons, not only as a topic of academic and media debate, but also in the construction of identities. The ideology itself that underlies this vision, sometimes innocent, extends its shadow over many important issues in the country, in terms of citizen's basic rights and other social and economic problems. The cartoon has historically been constituted as a tool at the service of an interested exploitation, either of denunciation or of complicity. In this article we try to address the idea of belonging and nationalism by studying some cartoons of Algerian cartoonists from different periods.

Keywords: Cartoons, identity, Algeria, elites, women.

ملخص

ترتكز هذه الدراسة على نظرة الكاريكاتير للقضايا المهمة في الجزائر، وبالأخص المرأة والهوية التي تعد من القضايا الجد معقدة في النقاش الأكاديمي والاعلامي، وغطت بظلمها على الكثير من القضايا المهمة في البلاد على نحو الحقوق الأساسية للمواطن و تدني المستوى المعيشي وغيرها من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، بل شكلت حلقة صراع بين النخب ومطية سهلة لدى السياسيين للتلاعب بها واستغلالها و في هذا المقال نحاول التطرق إلى فكرة الانتماء والوطنية عبر دراسة بعض النماذج الكاريكاتيرية لرسامين جزائريين من فترات مختلفة .

الكلمات المفتاحية: الكاريكاتير، الهوية، الجزائر، النخب، المرأة.

في صياغتي لهذا المقال ركزت في البداية على الكاريكاتير كظاهرة اجتماعية الهدف منها فهم بعض خصائص المجتمع الجزائري، ولكن في مرحلة التفكير ووضع التصور العام، لفتت انتباهي الدكتوراه نادية سببتي¹ إلى إشكالية «الجندر» في الكاريكاتير الجزائري. وخلال البحث المكتبي كان لمقال² Willy Jansen بعنوان: What happened to Zina Daili? Gender, politics and honour in Algeria الدور في توجيه العمل عبر العبارة التالية: «الكاريكاتير الجزائري في هذا الوقت لا يهدف إلى بلوغ العالمية بل يعمل على بناء مشروع الهوية.» ومن ذلك تم تحديد موضوع المقال في إشكالية الهوية والوطنية من خلال الكاريكاتير وتقديم تصور الرسام الكاريكاتيري للمرأة الجزائرية³. (إشكالية الهوية في الجزائر تعود إلى توجيه التفكير من قبل قوى لها مصالح تعتمد إلى المحافظة عليها من خلال خلق هذه النقاشات)، فأمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة يقول «لا تتحدد الهوية نهائياً بل تتكون و تتحول طيلة حياة الإنسان»⁴ لذلك نجد الهوية تتغير حسب المواقف السياسية و الايديولوجيات الفكرية والتيارات الدينية و مع هذا فإن تأثير البيئة الاجتماعية له دور تحديد معنى الانتماء⁵. فمسار بناء الهوية في الجزائر له تاريخ، تم في ظروف معينة جعلت منه يقع ضمن السياق الدفاعي لإثبات الذات، حيث تحدد في تيارين وبقي هذا التحديد ساري المفعول ولكن في عدة أوجه،

1 استاذة ضمن فريق التكوين نماذج المشغل العربي أحد برامج المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.

2 Willy Jansen, "What happened to Zina Daili? Gender, politics and honour in Algeria", *The Everyday Functioning of Politics and Dissent in the Maghreb*, Yale University, February, 21-2, 2009.

3 Mohammed el Mokhtar Bekada, « Quête d'émancipation et violence dans 'Journal d'une femme insomniaque' de Rachid Boudjedra », *Les cahiers du CRASC*, 2009, núm. 20, p. 35.

4 أمين معلوف، الهويات القاتلة، دار الفارابي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 2011، ص: 37 .

5 المرجع نفسه، ص: 37 .

سننترق إليها بالتفصيل في تفاصيل المقال ومنه كان لكل طرف تصور حول الوطنية منحصرة في بعض المعالم التي تم انتاجها من طرفهم، لذلك كانت دراستنا تركز على الكاريكاتير كمثل للبيئة الاجتماعية والمرأة كملخصة للتصور الوطني الهوياتي. لقد تم التطرق إلى المرأة في الرسم الكاريكاتيري في عمل Willy Jansen والتي عُلمت فيها المرأة من ناحية الجندر والسياسة في الرسومات الرسام «slim» الذي يُعد بين أهم الكاريكاتيريين الجزائريين بعد الاستقلال حتى اليوم، نظراً لإصداره عدد كبير من الرسومات تمس المجتمع الجزائري من جميع النواحي في الدراسة سابقة الذكر تتعرض صاحبة المقال لجانب من معالجة الكاريكاتير للمرأة والصورة النمطية التي عمل على صياغتها الرسام slim عن المرأة الجزائرية. لكن نحن الآن أمام إشكالية تتطلب الإجابة عنها والمتمثلة في الوطنية / الهوية في أعمال كل من ديلام وباقي، اللذان يعتبران من الجيل الثاني للكاريكاتيريين الجزائريين الذين برزوا بعد أكتوبر أحداث 1988، هذه الأحداث التي تعتبر بداية لمرحلة جديدة في الجزائر مغايرة لما قبلها، التي تميزت بأحادية الحزبية والانغلاق على الذات والإعلام الموجه الذي يخدم مصلحة الحزب الواحد وتوجه النظام الحاكم، المحتكر للمعلومة والحاد من حرية التعبير والرأي. في ظل هذا الوضع الجديد تم طرح موضوع الهوية بشكل كبير في الدراسات الاجتماعية وكتابات المثقفين الجزائريين، فالعياشي عنصر يؤكد على أن: «استخدام الهوية في المنافسة السياسية يتم عن ضعف جوهري في مستوى التطور الاجتماعي والسياسي للمجتمع، بل أكثر من ذلك يشير إلى تناقضات جوهرية تميز بنية المجتمع تمنع سيرورة الحداثة وتحويل دون بلورة مؤسسات عصرية في المجتمع، مما يعني، وحسب رأيه استمرار التأثير القوي لقيم المجتمع التقليدي ومعاييره التي ترتبط بمصالح قوى اجتماعية ترفض الحداثة والتطور على جميع الأصعدة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لما يمثل ذلك من تهديد لوجودها وهيمنتها»⁶. و يتضح أن الكثير من قضايا المجتمع تتم معالجتها عبر إشكالية الهوية في محاولة فهمها وإعادة بنائها، لذلك سيكون السند الذي نعتد عليه هو الكاريكاتير كوسيلة من وسائل الاتصال المرئي المعبر عن الهوية الجزائرية مرتبطة بالتراث والثقافة، سيكون عملنا مختزلاً في المرأة كعنصر هام وأساسي في بناء هذه الهوية وربطها بمفهوم الوطنية عبر استعمال دلالات الكاريكاتير برغم من تواجد بعض الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالمرأة من الناحية الجندرية.

6 العياشي عنصر، سوسولوجية الأزمة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد 191، ص: 88.

فالنقاش المتواجد على مستوى العام يمكن أن يطرح من الجانب الخاص من الناحية التحليلية، أي أن تواجد المرأة لا يمكن بأي حال من الأحوال إقصاؤه من عملية فهم الهوية الجزائرية التي تُحدد لنا فيما بعد مفهوم الوطنية، إن هذه الهوية متكونة من عدة عناصر وأجزاء على نحو اللغة والقومية والدين والجهوية أو الشرعية الثورية. يجمع الكثير من المحللين للواقع الجزائري على أن إشكالية الهوية والوطنية في الجزائر تُختزل في اللغة⁷ تتّمظهر في عدة صور على نحو الرمز والشعر والرواية وغيرها، إن الأزواجية: الهوية / الوطنية، التي يمكن أن تُصور في بعض الحالات في رمزية المرأة خصوصا في السياق الأدبي والسينمائي وفي بعض الحالات ترتبط بمتغيرات أخرى. وهنا يمكن فتح قوس من أجل الإشارة إلى أن الدراسات الجزائرية وإن تأثرت بمفاهيم القومية العربية والفكر البعثي خلال فترة معينة من التاريخ الجزائر أي مباشرة بعد الاستقلال⁸، إلا أنها لم تخرج من دائرة البحث أو إعادة رسم معالم الهوية الوطنية، وذلك لعدة عوامل مُهمّة منها، عامل الاستعمار الفرنسي الذي عمل على العبث بالهوية الجزائرية وخلق نخب موالية لتوجهاته، والعامل آخر هو تفكير الحركة الوطنية في الخمسينات الذي حمل مشروعات الأول عربي إسلامي والثاني تغريبي⁹، لذلك يمكن الحديث عن ظهور عدة نخب على جميع المستويات والتي يمكن اختصارها في ما يلي:

النخبة المتعلمة الفرنسية تكونت في المدارس الفرنسية تقدم خدماتها لمن يطلبها لتُكوّن مجموعات المصالح¹⁰ ويرى عبد العزيز مزيان أن أهم سماتها هو «احتقارها للجماهير الشعبية، وعبادة الترقّي الاجتماعي، والتوجه نحو أوروبا، والعداء الشديد للاشتراكية، والإيمان بالمعتقد البيروقراطي والتكنوقراطي»¹¹ وتتميز عن بقية أفراد المجتمع لدرجة أدت إلى «تولد الطائفة – النخبة التي تجمع بين السعة الحال المادية

7 جليبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب الغربي، ترجمة محمد أسليم، دار افريقيا الشرق، ص: 30.

8 تجلّى ذلك من خلال الاعلام الذي كان يساند القضايا العربية و فكرة الوحدة العربية .

9 اسماعيل قبيرة وآخرون، مستقبل الديمقراطية في الجزائر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الاولى 2002، ص: 94.

10 نور الدين زمام، السلطة الحاكمة والخيارات التنموية بالمجتمع الجزائري 1962-1998، دار

الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 2002، ص: 92.

11 المرجع نفسه، ص: 92.

المعروفة، وبين النفوذ الاجتماعي مع هيئة التعليم»¹². في مقابلها نجد النخبة المثقفة التقليدية: تكونت في مدارس جمعية العلماء¹³ والتحقّت بجهة التحرير سنة 1956، فقد وقفت موقفاً معارضاً من التوجهات الجديدة لدولة الاستقلال، كما أنها رفضت أطروحة فيدرالية بجهة التحرير بفرنسا التي طالبت بفصل الدين عن الدولة، سعت السلطة إلى استمالتها والعمل على توظيفها من خلال التعبئة الشعبية حول إيديولوجية بجهة التحرير ومن ذلك أضحت أداة مهمة كما يقول محمد أركون «لإضفاء الشرعية السياسية على السلطة»¹⁴ هذه النخبة تفتقد إلى التجانس في ما بينها.

النخبة المثقفة اليسارية: عُرفت بموقفها متوجس من سياسة الحكومة التي سيطرت عليها العناصر البورجوازية الصغيرة في بداية الاستقلال، تظم فئات لها القدرة على التعامل مع أي حكومة شريطة أن تمنحها فرصة التوغل داخل دُور الثقافة والمسارح، والاستحواذ على وسائل الاتصال الجماهيري من تلفزيون وإذاعة، لتلعب دوراً إيديولوجياً في صياغة العقول، وعدم ممانعتها من ممارسة أي دور سياسي يُمنح لها، ما دامت السلطة تتبنى إجراءات غير رجعية تماماً¹⁵.

والبعض يَحْتزّل التقسيم كل هذه النُخب إلى ثلاث فئات متحكمة في جهاز الدولة تكمن في الجيش مستمداً شرعته من جيش التحرير الوطني والفئة التكنوقراطية التي تتحكم في جهاز الدول والادارة والقطاع الصناعي لا تستطيع البقاء إلا بحماية الدولة إياها والاجهزة الايديولوجية والفئة الاسلامية ذات تكوين أدبي¹⁶.

إن الهدف من تقديم النخب المتواجدة في الجزائر هو إحاطة القارئ بالقوى المتحكمة في دواليب الحكم والأفكار التي تسيطر عليه.

يبدوا واضحا تأثير السياسيين في تكوين المجتمع الجزائري بعد الاستقلال عن طريق محاولة بناء المجتمع والدولة على نمط جديد بتصور ثابت عن الشخصية

12 المرجع نفسه، ص: 93.

13 جمعية العلماء المسلمين تأسست سنة 1931 من طرف مجموعة من علماء الدين الجزائريين الهدف منها إعادة بعث تعليم الدين الاسلامي واللغة العربية والقيم الجزائرية اهم رواها الشيخ عبد الحميد بن باديس.

14 Mohamed Arkoun, *La pensée arabe*, Paris, PUF, 1975, p. 107.

15 لطفي الخولي، عن الثورة وبالثورة، حوار مع بومدين، قسنطينة: من منشورات التجمع الجزائري البومديني الإسلامي، ص: 40-41.

16 جليلير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب الغربي، ترجمة محمد أسليم، دار افريقيا الشرق، ص78.

الجزائرية، هذه المرحلة التي حاول فيها النظام بناء مجتمع واحد يحمل صورة واحدة (النموذج اليعقوبي الموروث عن السلطة الاستعمارية)¹⁷ في تقديمه لنموذج الرجل الجزائري أو المرأة، عبر وسائل الإعلام سواء المكتوبة أو السمعية والبصرية، لتغيير الأمور بعد أحداث أكتوبر عام 1988، بصدر دستور (1989)¹⁸ انجر عنه أول قانون للإعلام تضمن حرية التعبير والرأي، تظهر في صدور مجموعة من الصحف الخاصة ذات أفكار جديدة وخلفيات متعددة سمحت لبروز جيل جديد من الصحفيين من جهة ومن جهة أخرى العديد من الكتاب والسينمائيين والفنانين. فكان للصحافة المكتوبة الدور الفعال والظاهر على جميع المستويات، لكونها استطاعت أن تتخلص ولو نسبياً من قيود السلطة وتبرز كصحافة خاصة، لا نسميها مستقلة لكونها تتأثر بالتيارات السياسية والحزبية والإيديولوجيات المتواجدة في البلاد.

إن الصحافة المكتوبة بمختلف مشاربها تمكنت ولو نسبياً من التطرق إلى أغلب القضايا العامة، التي تهّم المجتمع الجزائري المتحول من مجتمع موجه مُغمس في الخضوع والكبت نحو مجتمع متحرر، له القدرة على التعبير من خلال النقد وإعادة النقد لبعض التصرفات والسلوكات والعادات والتقاليد والممارسات، فتميزت هذه الفترة بمرافقة الكاريكاتير للصحافة والمكتوبة، الذي يُعد مؤشراً مهم في قياس درجة الحرية وبروزه بشكل كبير حيث أخذ حيزاً مهماً عند القراء، بل أصبح يُعد المقال الافتتاحي في بعض الصحف، فلم تخلو الرسومات الكاريكاتيرية من معالجة القضايا التي سبق التحدث عنها أي الهوية والوطنية. فهو بالإضافة لكونه يحمل الأخبار إلا أنه لا يخلو من السخرية والتهكم من مظاهر المجتمع، فهو نوع من التخاطب بين أفراد المجتمع عبر اللقاء والتلقي.

ولما كان للمرأة المكانة الكبيرة في الوسط الاجتماعي ودوراً يجعل منها موضوعاً لدراسة فالمرأة الجزائرية لا يمكن أن تكون استثناءً عن المرأة في العالم العربي والإسلامي ولكن بحكم الموروث الثقافي والديني المتراكم وما أحدث فيه من تغيرات بفعل الأعراف وتأويلات فهم الإسلام. الأمر الذي يسمح لنا بالقول أن نموذج المرأة في الجزائر ليس هو النموذج المطابق للمرأة في الخليج العربي أو أي قطر عربي آخر، لذلك فإن التصور العام للمرأة الجزائرية في دراستنا هذه ينطلق من التركيز على أهم النقاط التي تجعل من المرأة الجزائرية نموذجاً خاصاً ومميزاً.

17 المرجع السابق، ص: 97.

فالكاريكاتير يُعيننا على فهم تمثل الصحافة والمجتمع للهوية والوطنية في الجزائر من خلال تصور المرأة، فهو بذلك السند للفهم والتحليل وموضوع للدراسة في نفس الوقت، لكونه على غرار المقال الصحفي يعتمد على أسس حجاجية من أجل إقناع القارئ على نحو المقال الصحفي فهو تعبير عن موقف اتجاه قضية، لذلك نجد الرسام الكاريكاتير يلجأ إلى العبارات الدقيقة والمختصرة والمعبرة أو إلى الرسم الرمزي الحامل لكثير من الإيحاءات. كذلك نجد الكاريكاتيريين يعمدون بشكل كبير إلى استعمال الخطاب التحاوري في الرسم وذلك بغرض خلق نقاش داخل الرسم يؤثر على القارئ للنص والمشاهد للصورة.

حددنا مجال الدراسة في أعمال نموذجين متباينين، من حيث طريقة الرسم واللغة والخط الافتتاحي للجريدة، وهما الرسام ديلام يشتغل بجريدة ليبرتي الناطقة باللغة الفرنسية ذات التوجه الفرنكفوني. والرسام الكاريكاتيري «السوسة» يشتغل بجريدة الشروق الناطقة باللغة العربية التي تعتبر نفسها ذات بُعد قومي عربي إسلامي.

وبالاعتماد على هذه المتغيرات نحن نحاول فهم كيفية تقديم كل رسام للمرأة الجزائرية، كمكون من مكونات الهوية الجزائرية على أنها نموذج للوطنية / الهوية. استعملنا المنهج المقارن أي المقارنة بين نوعين أو شكلين من التعبير الصحفي وأخذنا بعين الاعتبار اللغة والتوجه الإيديولوجي للجريدة متمثل في الخط الافتتاحي، كذلك مكانة الجريدة في الوسط الإعلامي وأهميتها بالنسبة للقراء. كل هذه المتغيرات تكون سندا لنا في التحليل والفهم لإشكالية الهوية في الجزائر عبر تصور الكاريكاتير للمرأة من الناحية الكيفية، وفي السياق نفسه نجد أن الصحافة المكتوبة في الجزائر ماهي إلا انعكاس لتنوع النخب برغم من عدم بروزها بشكل علني في المجتمع الجزائري، هذه الصحافة التي تبنت مجموعة متباينة من الأفكار والتوجهات الإيديولوجية لتلك النخب.

تبقى نظرة كل رسام كاريكاتيري مختلفة عن غيره، لذلك نقدم بعض المتغيرات التي نراها تأثر على أعمال الرسام الكاريكاتيري منها الخط الافتتاحي للجريدة ومدرسة الرسام الكاريكاتيري هذان الأمران يؤثران بشكل كبير على العمل الكاريكاتيري وتصوره للمرأة فالخط الافتتاحي للجريدة يُعبر عن التوجه العام لمسار الجريدة بشكل كلي والذي يحدد مسارها المهني وآراءها اتجاه القضايا السياسية والاجتماعية الوطنية والدولية. ثم السياق الذي يطرح فيه الموضوع أي موضوع المرأة وارتباطه مع الحدث ومدى تأثيره على القارئ، على نحو تصادف الرسم مع يوم الثامن من مارس، أو نشاط

حزبي أو جمعي ملفت للانتباه، أما شخصية الكاريكاتيري في حد ذاته تبدو واضحة من خلال رسوماته و تمثلاته لأي موقف .

الأمر الذي سيظهر من الناحية التحليلية لرسومات، فالكاريكاتير نصاً في حد ذاته، لكونه يحمل كل أركان الخطاب أي المرسل (الرسام الكاريكاتيري) والرسالة (اللوحة الكاريكاتيرية) والمستقبل (القارئ) . فالكاريكاتير يتكون من الصورة التي تُعرّف بالأيقونة والأقوال اللغوية وبذلك نجد من يعبر عنها بهذه العبارة: « إن جملة العلاقات بين الأيقونات هي التي تولد المقومات الدلالية »¹⁹ ويجسم التداخل بين اللغوي والأيقوني في هذا الشكل :



ايقونات (صور) + أقوال لغوية
↓
تحليل العلاقات بين الايقونات داخل اللوحة
↓
الظفر بالدلالات المتولدة عن اشتغال الايقونات

↓
لا بد من الاستنارة بالمؤشرات الخارجية (الوضع السياسي، الثقافي، الاجتماعي)²⁰.

ولكون الكاريكاتير خطاب يُنبني على تمفصل نسقين مغايرين نسق لغوي ونسق غير لغوي، فأول يتكون من الجمل والعبارات وعناوين ذات إيحاءات والنسق الثاني

19 علي البوجديد، الفضاء في الكاريكاتير الساخر، رسوم ناجي العلي الكاريكاتورية، مجلة الكوفة، السنة الثانية، العدد الثاني، ربيع 2014، ص: 195
20 المرجع نفسه، ص: 195.

فيمثله الجانب التشكيلي في اللوحة بكل مكوناته.²¹ وقد تم اختيار بعض الرسومات لقراءتها وهي التي اعتبرناها تمثل بعض النماذج حول المرأة وتمثيلها للهوية والوطنية.

النموذج الأول: رسم سليم، يتكون هذا الرسم من ثلاث شخصيات، بوزيد وزينة والقط وهي الشخصيات البارزة في رسومات «سليم»، ظهرت كسلسلة بداية من سنة 1969، في هذا الرسم يظهر بوزيد بلباس تقليدي جزائري العباءة والسرवाल والحذاء التقليدي بالإضافة إلى العصا في اليد ممسوكة من الوسط. ويوجد في الرسم فقاعة للكلام باللغة الفرنسية حيث يقول فيها بوزيد: أقدم نفسي: «بوزيد البسباسي، الوظيفة: جزائري. ومن جهتها نجد المرأة التي تقدم نفسها بقولها: «أقدم نفسي زينة، زوجة بوزيد، جميلة وذكية وحداثية». ثم نجد القط الذي بدوره يقدم نفسه بقوله: «أقدم نفسي: القط وعبارة «مديقتي» في سماء بوزيد.»، وكلمة «مديقتي باللغة الفرنسية تعني «كاره». تم اختيار لباس معين لزينة فهي ترتدي الحايك باللون الأبيض وسروال تقليدي بلون أخضر بالإضافة إلى حذاء بكعب طويل، وتضع ما يعرف بـ«العجار» أي النقاب، وهو قطعة قماش تضعها المرأة كرمز للحشمة. إذن المزج بين التقليدي والحداثي في لباس وتمثل المرأة لنفسها عبر تصور الرسام «سليم»، هذا العمل هو نموذج لمرحلة من تاريخ الجزائر بعد الاستقلال في البحث عن الهوية والوطنية التي كانت في تصور الساسة والمثقفين وهنا نجد الرسام ديلام فيما بعد يتماشى مع فكرة الهوية والوطنية المرتبطة بالجزائر أي الجمع بين الحداثي والتقليدي المنتج من الأصول الجزائري، فالحجج المستعملة تظهر من خلال تعريف بوزيد بنفسه بقوله جزائري كانتملاء للوطن وتحديد للهوية الجزائرية الصرفة، من جهتها زينة فهي الجميلة والذكية بالإضافة إلى أنها حداثية لا تتخلى عن مواصفاتها الموروثة عن الأجداد والتقاليد، فالذات المتحدثة تحاول إبراز مميزاتها وخصائصها المتباينة عن غيرها، فالتعبير في النص يقدم لنا الواقع من حول الرسام والتفكير السائد في تلك المرحلة، فالنص «لا يمكن أن يكون معزولا عن شروط انتاجه ومرتبطة بوضعية تلفظية فريدة»²².

21 المرجع نفسه، ص: 196.

22 Hamou Dehbia, "Problematic of Text in Pragmatic Linguistics", *Semat* 3, 2015, núm. 1, p. 41.

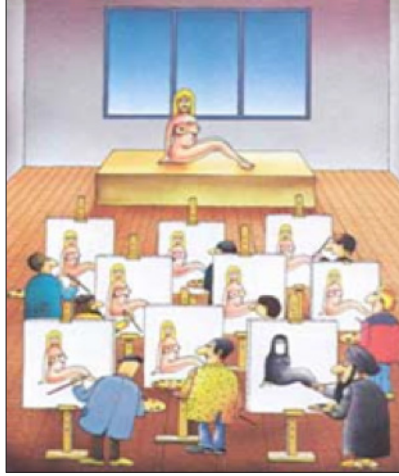


النموذج الثاني: رسم « لرشيد قاسي » وفي هذا الرسم لرشيد قاسي²³ يظهر لنا التصور المختلف للمرأة من خلال رسمها في معهد الفنون الجميلة ويبرز بشكل كبير الشخص الملتحي صاحب العمامة والقميص كيف رسم المرأة من منطلق تفكيره وإيديولوجيته. هذه الصورة الكاريكاتيرية الخالية من النص والخطاب بل ارتكز الرسام على الرسم فقط مع الإكثار من الشخصيات داخل الرسم، الأمر المميز هو تنوع هذه الشخصيات من خلل تنوع لباسهم إلا أنهم يتفقون على رسم المرأة في لوحاتهم وهي عارية، إلا شخص واحد يرسمها وهي متحجبة وترتدي النقاب. إن هذا الرسم ليس من الواقع ولكنه يحمل مجموعة من الأفكار والتصورات لفئة معينة من المجتمع الجزائري ونجد الرسام رشيد قاسي يصرح بهذا الموقف في حوار نشر له على موقع أراب كرتون²⁴، حيث كانت أغلب رسوماته في فترة الثمانينات قبل أكتوبر 1988. هو بذلك عبر عن تصور الإسلاميين للمرأة ومنه الهوية والوطنية الجزائرية في إطار إسلامي سلفي وانتماء عربي والتي يطمح الإسلاميون لبنائها، لقد كان للمثقفين وبالخصوص الإعلاميين الفرصة لتقديم آرائهم وتوجهاتهم عبر الصحافة المكتوبة والكاريكاتير حيث كان أغلب الرسامين من الذين نظموا إلى المدارس والمراكز الفنية والتعليمية وكان الغرض من أعدادهم توجيه المجتمع حسب رأي وافكار النظام السياسي في تلك الفترة والذي كان يرى في الإسلاميين خطر على الدولة، وابدأ نوعا من الامتعاض ضدهم، حيث استعمل الكاريكاتير كوسيلة لنقل اقيم و الأيديولوجيات التي تم انتاجها بعد

23 رشيد قاسي، بدأ الرسم عام 1964 بعد الاستقلال في جريدة «المجاهد»، درس في بلغاريا، انتقل للإقامة والعمل في فرنسا، حيث يرسم للصحف الفرنسية والعربية.

24 Vid. <http://www.arabcartoon.net/ar>.

الاستقلال هذا الامر الذي استغل في السبعينات من طرف الحركات الاشتراكية ضد الاسلاميين وفي التسعينات ضد المسلحين والاحزاب الاسلامية المعارضة .



النموذج الثالث : لرسام الشروق «باقي»، تعتبر الصورة التي يقدمها الكاريكاتير الجزائري عن المرأة كعينة عمل من أعمال الرسام «سوسة»، ففي هذا الرسم الذي يقدم بعنوان: «**عيادة طبية ترقع غشاء البكارة خارج القانون**»، ويحتوي الرسم على ثلاث شخصيات: الطبيب واقف خلف المكتب وتوجد لافتة كتب عليها طبيب وهو يرتدي مؤزر أبيض ومقابله شرطي متكئ على المكتب بيده ويجواره فتاة غير متحجبة، الحوار في النص يقتصر على الطبيب والشرطي في حين تبقى الفتاة صامتة ويظهر ذلك من خلال الفقاعات حيث يبادر الشرطي في طرح السؤال على الطبيب بقوله: «**أعلاش رقعتهما؟**»، أي لماذا قمت بترقيع غشاء بكرتها؟ فيجيبه الطبيب وهو يضحك: «**ياخويا اسمحلي... ضرك أنرجعها كيما كانت؟**»، أي ما معناه معذرة... سأرجعها في الحين كما كانت من قبل. يظهر لنا الرسم الكاريكاتير واقع الذي يراه الرسام عن المرأة والتي يقدمها على نحو «شيء» لا يملك حتى الحق في الدفاع عن نفسه، ويمكن التلاعب به بطريقة تهكمية تنقص من مكانة المرأة من جميع النواحي أي معالجة المرأة من ناحية اختلاف بيولوجي عن الرجل فقط²⁵.

ليغفل عن وجود المرأة ككيان مستقل وله دور في الحياة وأهميته في بناء مجتمع حديثي وهذا برغم من تواجد العديد من القوانين التي تضمن حقوقها وتحاول تغيير الصور السلبية عن المرأة، أي إقصاها من حمل الهوية والوطنية والحياة السياسية التي تختزل في رسومات الكاريكاتيريين في صورة زعيمة حزب العمال إن الرسم الكاريكاتيري يحاول تقديم الإسقاطات والتصورات التي تشكلت في المجتمع الجزائري . فالخطاب السياسي الجزائري منذ الاستقلال حفز على تشجيع تحرير المرأة و ضمان و مساوات حقوقها حيث يبدو ذلك جليا في المواثيق والقوانين التي تضمن هذه الحقوق، عدم اهلية الفتاة للزواج قبل سنة 16 و هو ما عرف بقانون خميستي (29 جوان 1963)، هذه القوانين والمواثيق التي لم تتماشى بشكل جيد مع الذهنيات والتقاليد القديمة التي رفضت لتغيير وعملت عليها المرأة من عدة جوانب على الحفاظ عليها، ففي هذا الرسم يجسد لنا هذا الامر فالفتاة برغم من أنها تبدو في الرسم من ناحية الهندام انه متحررة وحادثية غلا أنه لا تزال تخضع لممارسات السلطة الأبوية ويمكن أن رسالة الرسام الموجه للقارئ أن المرأة الجزائرية لا تخرج عن تقاليدها وهويتها الموروثة برغم من تعلمها وتحضرها، فهي لا تعارض الأب أو الأخ أو الزوج وبذلك فهي دائما تحتاج إلى شخص يحميها وتبقى مرتبطة به .

النموذج الرابع : يقدم لنا الرسم « ديلام » المرأة الجزائرية عادت على نموذج المرأة المسلمة في المجتمع الغربي، بأخص في فرنسا في المرحلة الحالية، مع ارتفاع موجة الحديث عن الجلباب والبرقع وغيره من السلوكات التي شهدتها فرنسا وأثارت عدة قضايا لنقاش، فهو يقدم لنا صورة نمطية لهذه المرأة التي يعتبر أنها قد سقطت في حصار السلفية والتشدد . ففي هذا الرسم المتضمن حوار، بين شخصيات مستوحاة من الواقع السياسي اليومي للجزائر، يُعنوان الرسام عمله هذا بالعنوان التالي : « **ترتيب حرية الصحافة في العالم** »، بنط عربي في الإطار—ولإشارة النص باللغة الفرنسية— نجد صورة لامرأة تحمل علم الجزائر في حالة غضب وترتدي اللباس التقليدي الجزائري الحايك وفي يدها الأخرى تحمل ورقة، وتقول : « **الجزائر بين طاجكستان وزمبابوي** »، وتشير بها إلى شخصان واحد في لباس عسكري وفي قبعته اشارة ممنوع المرور ويظهره الرسام ضخم الجثة ويغض على اسنانه، كأنه يرتعش من الخوف . وبجواره شخص آخر يلبس بدلة زرقاء التي تعتبر اللباس الشبه الرسمي للمسؤولين السياسيين في الجزائر

وهذا الشخص يبدي نفس التصرفات للشخص الاول، ويجيبانها بقولهما: « عذرا ... نحن لا نعرف الجغرافيا»، يقدم لنا الرسام في هذه الصورة المرأة على أنها الضمير الجمعي أو ضمير الأمة التي يرضخ لها الكل في البلاد وهي تمثل الجزائر كوطن، يرمز إليها بشكل المرأة الجزائرية بلباسها التقليدي المميز، بذلك فهو يعتبر أن الهوية والوطنية التي تمثلها المرأة هي النابعة من الجزائر وليس المستوردة من الخارج، لا من الدول الغربية ولا من الدول العربية الاسلامية .



يعتبر الرسام «ديلام» من التيار الذي يمثل النموذج المرتبط بداخل الجزائر والرافض للمد الاسلامي في شكله الجديد والذي يرى أن الوطنية والهوية ترتبط الدولة القطرية . ففي مقال صدر في كراسات المركز توضح ليلي دنيا ميموني المرأة الجزائرية التي تمثل الشعب أي الشعب الفقير وهي المرأة المقهورة التي تتحول إلى النموذج الاصلي لتمثيل معاناة الشعب والتفكير²⁶. ولا يمكن تجاوز الجانب الشخصي لرسام الكاريكاتيري وتكوين شخصيته وتأثير ذلك على المادة المنتجة والفكرة التي يحملها . فمعنى الكاريكاتير لا يكمن فقط في الرسم، بل في النص الذي يحمله، فعن طريق النص والرسم نفس الكاريكاتير . فنحتاج إلى معلومات كثيرة من نصوص متعددة لفهم الصورة الكاريكاتيرية فعبء منطلق بسيط، نحاول فيه فهم الصورة، التي يقدمها لنا الرسامين الكاريكاتيريين، «سوسة» والرسام «ديلام»، عن المرأة الهوية / الوطنية، من خلال تتبع نموذج عن الصورة المقدمة للمرأة لدى الرسام الكاريكاتيري الجزائري .

26 Leïla Dounia Mimouni, « Place et fonction de l'héroïne dans l'univers de la bande dessinée et de la caricature », Les cahiers du CRASC, 2009, núm. 20, p. 94.

يعد تقديمنا للنماذج الأربعة محاولة لعرض تصور الهوية والوطنية في الجزائر عبر أربع مراحل في مسار الكاريكاتير الجزائري وهي التغيرات التي شهدتها الدولة والوطنية بعد الاستقلال، عبر عنها الكاريكاتير بشكل يعكس التطور والتحول في المفاهيم حسب عدة متغيرات على نحو النظام السياسي والأيديولوجية السائدة وحركية المجتمع.

وفي الختام تبقى المرأة في أغلب الأعمال الكاريكاتيرية تتخبط في المشاكل العامة التي يوجهها المجتمع الجزائري ككل، من حيث الإقصاء ومحاولة السلطة لفرض نموذج موحد عن الهوية والوطنية سواء بالنسبة للمرأة أو الرجل أو أي عنصر من العناصر التي تشكل بنية هذا المجتمع، وإن كان الكاريكاتير يطمح إلى البحث عن الهوية والتي يجسدها في عدة رموز وتصورات إلا أن النظام السياسي يعمل دائماً على تقديم التصور الخاص به حول الهوية والوطنية في شكل معين يمكن أن يختلف عن تصور الرسام الكاريكاتيري الذي يعالج هذه القضايا من الناحية الثقافية ويعمل على تمرير رسالة إعلامية ذات دلالات سياسية خفية. وإن كان هذا حال المرأة بشكل عام ففي هذه الدراسة عمدنا إلى دراستها عبر قناة الاتصال أي الكاريكاتير من خلال رمزيتها وتمثيلها لمفهوم الهوية والوطنية. فالمتقنون يجدون أنفسهم أمام مشكلة كبيرة بالنسبة للوضع وتساؤل مهم يطرحه المجتمع، عبر الكثير من النقاشات وصور مختلفة للتعبير إما منظمة عبر الأحزاب والجمعيات أو وسائل الاعلام أم عبر طرق غير منظمة عبر الاحتجاجات والتعليق والفكاهة والنكت، في هذا الوضع الجديد في الجزائر كان للكاريكاتير دوراً في عملية بناء أو إعادة بناء الهوية الوطنية الجزائرية ولكون الهوية متعددة الأوجه والأشكال حاول كل طرف ربطها بالعامل الذي يراه مهماً وأساسياً ويمكن من خلاله تقديم قيمة مضافة لهذه الهوية التي يعتبرها البعض الآخر أنها مفقودة ويراها البعض أنها موجودة منذ وجود الجزائر وما هذه النقاشات سوى محاولة لأدلة الهوية الجزائرية حيث يقدم لنا الكاريكاتير تلك الوطنية والهوية التي تنبثق من الواقع المعاش و حديث المجتمع في عمقه بعيداً عن رأي السياسيين. فالأيديولوجية تبرز لنا توجهات في وجهة النظر اتجاه القضية أو الامر المراد معالجته ولكوننا ندرس المرأة و الهوية التي تتمثل في الوطنية والقومية فمعالجة المرأة والوطنية يجعل الأمر يزيد من الصعوبة وبالأخص في وضع مثل الجزائر الذي أخذ على عاتقه تبني الكثير من التصورات نحو المرأة والوطنية فالنقاش بين التوجه الإسلامي العروبي والتيار المفرنس الغربي يضعنا في نقطة جدل وخلاف فكل تيار يقدم لنا نموذج يعتبر

أنه الممثل للمرأة الجزائرية وأنه معبر عن الهوية الوطنية والقومية ومنه ينفى فكرة الطرف الآخر ويحاول تجاهله أو حتى إقصاءه لهذا فالمسألة تعد مسألة هوية أكثر منها وطنية هذه الهوية التي قد تتجاوز في بعض الاحيان المصالح الوطنية و مفهوم الانتماء للوطن، عكس بعض المجتمعات التي تعدت الهوية إلى الوطنية تتجاوز كل النقاشات التي من شأنها خلق الفتنة وتسمح بالتدخل الاجنبي من قريب أو من بعيد وتحت أي غطاء.

